ليونيد أندرييف

روايــة

هل كان مجنونا؟

«الجزائر تقرأ»

العنوان: هل كان مجنونا؟

المؤلف: ليونيد أندرييف

ترجمة: مجلة الرسالة

الجزائر تقرأ

8 شارع حساني يسعد، الجزائر الوسطى،
الجزائر العاصمة/ الجزائر

إيميل: NASHR.DZREADS@GMAIL.COM

فايسبوك / تويتر / سنابشات / يوتيوب/ تلغرام **@dzreads**

إنستغرام **@dz_reads**

للمهتمين بالحصول على كتبنا، يرجى طلبها من متجرنا
الإلكتروني، توصيل لغاية باب البيت

DZREADS.COM

يمكن الحصول على هذا
الكتاب وغيره من كتب
الجزائر تقرأ الأخرى
وماتشتهيه من كتب عبر
متجرنا الإلكتروني مع توصيل
لباب البيت

DZREADS.COM

<الجزائر تقرأ>

ليونيد أندرييف

يونيد أندرييف (1871-1919م). كاتب قصصي ومسرحي روسي.

امتاز أندرييف بالتشاؤم والقنوط المفرط في معظم أعماله. ويعالج عدد من أعماله موضوعات الوحدة والمعاناة الإنسانية. وتستكشف قصته القصيرة الأكثر شهرة الضحكة الحمراء (1904م) رعب وهول الحرب. أما روايته القصيرة السبعة الذين شنقوا (1908م) فتستقصي مشاعر خمسة ثوريين واثنين من القتلة، بينما ينتظرون إعدامهم. أما مسرحيتاه الأكثر شعبية فهما حياة الإنسان (1906م)، والذي يتعرض للصفع (1915م).

ليونيد أندرييف

في اليوم الحادي عشر من شهر ديسمبر سنة 1900، ارتكب الدكتور أنتوني كرجنتزف أحد الأطباء جريمة قتل، وبدا من الظروف التي وقعت فيها الجريمة والحوادث التي سبقتها، ما يشير إلى اضطراب في ذهنية القاتل، فأُخذ الطبيب إلى مستشفى الأمراض النفسية لفحصه، وهناك عرض على أمهر الأطباء والأخصائيين ولكن ما كاد ينقضي الشهر الأول بعد دخوله المستشفى حتى قدّم الدكتور كرجنتزف إلى أطبائه مذكرة كتبها يشرح فيها الجريمة كاملة.

المذكرة

1--

حتى هذه الساعة، وأنا أكتم عنكم حقيقة ما جرى، ولكني أشعر الآن بقوة تدفعني لإظهارها، وستفهمون بعد قراءة هذه المذكرة أن الجريمة التي ارتكبتها ليست بالسهولة التي تبدو عليها. وليست سطحية كما قد يراها البعض، جريمتي ليست نوعا من تلك الجرائم العادية التي تقود إلى السلاسل والأغلال، وتسوق الجاني إلى الاشتمال في أكسية المجرم، وسترة القاتل، في جريمتي عنصر رهيب، أرهب مما تظنون، عنصر غريب موحش، ستنتفعون منه وتستفيدون.

إن الرجل الذي قتلته، أليكسيز سافيلوف،

كان رفيقي في المدرسة، ثم في الجامعة، وإن كان تخصصه الدراسي غير تخصصي، وأنتم تعلمون أنني طبيب، وكان هو محامياً، ومحال أن يقال عني إنني كنت أبغضه، كنت أجده رقيق القلب، فائق الشعور، فوار الإحساس، ولم أصادق في حياتي أحداً آخر كصداقتي له، ولكن لم يكن أليكسين على الرغم من رقته ووجدانيته ذا شخصية كبيرة تدفعني لاحترامه، وتوحي إلى عاطفة التبجيل، حلاوة طبيعته وتواضعه المدهش الغريب وتقلبه في آرائه وعواطفه ومشاعره وتطرفه الشديد في أفكاره المتحولة المتغيرة، كل هذه الأمور كانت تضطرني إلى أن أعتبره طفلاً، بل أعده امرأة، وكان أصدقاءه الآخرون وعائلته دوما هدفاً لثورة هذا الإحساس، وبركان هذا المزاج، ولكن ما أبعد الطبائع البشرية عن المنطق! إذ كانوا في الوقت نفسه يحبونه حبا عظيما، وكانوا يجتهدوندوما في أن يجدوا له الأعذار لجميع هفواته، واقتفيت في ذلك أثرهم،

فشاركتهم في الرأي، وجعلت أغضي الطرف عن هفواته أيضا، هفواته الصغيرة، نعم أقول الصغيرة وأصر على القول، لأن ألكسيز كان عاجزاً عن فعل أي شيء كبير، حتى في الهفوات، وإذا أردتم أيها السادة دليلاً على ما أقول فليس علي إلا أن أعد عليكم كتاباته الأدبية. كلها سخيفة حقيرة. وإن اثنى بعض النقاد الحمقى خيراً عليها. نعم هي لا شيئيات جميلة كما أن مؤلفها لا شيء.. حسناً.

كان ألكسيز يوم مقتله في الواحدة والثلاثين. كان أصغر مني بسنة ونصف، وكان ألكسيز متزوجاً، وإذا كنتم قد رأيتم زوجته قد عادت أرملة حزينة فلا تعرفون كيف كانت قبل مقتل زوجها، فقدت كثيراً من ألقها، هذه وجنتها قد ذبلت، وهذا خدها الأثيل قد أظلم، هذه بشرتها الناعمة قد ظهر فيها التخدد والغضون، كانت تحب زوجها حبا كبيرا، هذه عينها لا تشرق ولا تلمع كما كانت بالأمس، ولم تعد تضحك هي

التي كانت تملأ الدنيا ضحكا وابتسامة، وقد رأيتها عرضاً في مركز الشرطة، فكدت أصعق من شدة التغير الذي طرأ عليها، لم تستطع أن ترمقني بنظرة ساخطة متوحشة مفترسة، آه على المسكينة!

كان هناك ثلاثة فقط، ألكسيز وتاتيانا وأنا، هم الذين يعلمون وحدهم أنني منذ خمسة أعوام قبل زواج ألكسيز بعامين كنت قد طلبت يد تاتيانا فرفضت ذلك. ولكن من الحماقة أن أقول إننا كنا ثلاثة فقط من نعلم بهذا، لا شك أن لتاتيانا حلقة من الأصدقاء والأحباب.. وكلهم قد علم - ولا شك - بأن الدكتور كرجنتزف طلب يوماً يدها للزواج. فكان نصيبه حرارة الرفض.

إني أتساءل أتراها تتذكر أنها ضحكت في ذلك اليوم الذي طلبت فيها يدها للزواج، نعم كم ضحكت وابتسمت خلال حياتها، ولكن في الخامس من شهر سبتمبر ضحكت،

«الجزائر تقرأ»

عندما طلبت يدها، وأنا الرجل القوي العتيد، الذي لم يذرف يوماً دمعة واحدة في حياته، ولم يعرف الرعب ولا الخوف، وقفت يومذاك أمامها مرتجفاً مرتعداً، رأيتني مرتجفاً ورأيتها تعض شفتها، ففتحت لها ذراعي لأضمها، فرفعت عينيها، ورأيت عيناها تضحكان، هنا تراخت ذراعاي، وراحت هي تضحك، وضحكت كثيراً، كما شاءت ولكنها عادت بعد ضحكاتها واعتذرت.

قالت، وعيناها لا تزالان تضحكان (أتوسل إليك أن تسامحني) ابتسمت أنا كذلك، لو استطعت الآن أأصفح عن ضحكها لفعلت، ولكني لا أستطيع أبدا أن أسامح ابتسامة النفي تلك!

حدث ذلك في الخامس من سبتمبر، الساعة السادسة مساء بتوقيت سان بطرسبرج. أقول بتوقيت سان بطرسبرج لأننا كنا في تلك الساعة على عتبة المحطة، وها أنا لا أزال الآن

أنظر إلى ساعة المحطة وأتبين موقع عقربيها، أحدهما في رأس الساعة والآخر في أسفلها، وفوق ذلك فإن ألكسيز قتل في الساعة السادسة تماماً، وهذا توافق غريب، توافق ذو معان كبيرة عند الرجل اليقظ البصير.

لقد قلتم إن أحد الأسباب التي أتيتم بي لأجلها إلى هذا المستشفى هو أنكم لم تجدوا أي باعث على ارتكاب الجريمة، فهل يا ترى عثرتم اليوم على أي باعث؟ قد تقولون الغيرة، ولكنكم ستظلون مخطئين، إن الغيرة من صفات رجل حاد، مزاجه مستعر ناري، وليست من صفات رجل هادئ المزاج رصين العقل بارد الروح كشأني، أو ربما يكون الانتقام؟ نعم ربما يكون هذا أقرب إلى الحقيقة وإن كانت إلا كلمة قديمة لإحساس جديد وشعور غريب مجهول.

لابد أن أقول إن تاتيانا خيبت ظني مرة أخرى، المرة الأولى عندما رفضت الزواج مني،

والمرة الثانية عندما كنت أعتقد أنها بزواجها من ألكسيز، صديقي الذي أعرفه جيدا، لن تجد الهناء يوماً واحداً، وستندم على رفضها طلبي الزواج منها ولهذا السبب اجتهدت في تعجيل زواجهما. وكان ألكسيز قد عشقها فعلا.

قال لي قبل فاجعة مقتله بشهر (إنني مدين لك بهذه السعادة) ثم التفت إلى زوجته يسألها (أوليس كذلك يا زوجتي؟).

نظرت إلي ثم تمتمت (نعم) وضحكت عيناها فضحكت، وضحكنا جميعاً وألكسيز يضمها إلى صدره، وكانا لا يستحييان من شيء أمامي.

قال ألكسيز (نعم، إنك يا صديقي قد خسرت الصيد).

هذه النكتة الباردة المؤلمة الثقيلة هي التي قصّرت من حياته أسبوعاً كاملاً، لأنني كنت قد أجمعت أول الأمر أن لا أقتله حتى اليوم الثامن عشر من ديسمبر.

الجزائر تقرأ

أجل، كانت الحياة قد طابت للزوجين، ولاسيما تاتيانا فقد كانت سعيدة كل السعادة. أما ألكسيز فلم يكن حبه لها في أعماق قلبه، لأنه يعجز عن أي حب عميق، وكان الأدب ملهاته يؤثره على مناعم البيت ومباهج الزواج، ولكن هي! هي لم تكن تحب إلا هو، وكانت لا تحيا إلا له هو، وكان أبداً متوعك الصحة، ينتابه الصداع، وينهكه الأرق، وكانت تاتيانا ترى في العناية برغباته سعادة عظيمة، وأكبر النعمة، والمرأة يوم تحب، تفقد كل شخصيتها.

كذلك كنت أرى كل يوم وجهها المبتسم ومحياها الباهر المشرق الناعم فكنت أقول لنفسي وأتساءل (أنا سبب كل هذا، أردت أن أرميها في حظن زوج مغفل كي ترى بنفسها مبلغ خسارتها يوم رفضتني فإذا بي أراني قد جئت إليها بالرجل الذي أحبت!) وأنتم يا من ترون غرابة موقفي، كانت أخصب ذهناً من زوجها، كانت تحب حديثي وتناقشه، فإذا انتهينا من

الحديث تركتني في رفق مبتهجة إلى ذراعي زوجها!

لا أستطيع أن أتذكر متى كان أول مرة فكرت فيها في قتل ألكسيز، كل ما أعرفه أنني ألفت هذه الفكرة حتى كأنها ولدت معي وأعرف أنني كنت أريد أن أنزل بتاتيانا العذاب والألم، لقد فكرت أيضا في وسائل أخرى لإنجاز غرضي، وسائل أقل خطراً على ألكسيز، لأنني كنت طيلة حياتي عدواً للقسوة كارهاً لها، وكنت أعرف ما هو القتل، وأعلم أنه جريمة يشتد القانون في العقاب عليها ولكن أليست كل أعمالنا جرائم مختلفة الضروب والأنواع؟

لم أكن أشعر بالخوف من نفسي، وهذا كل شيء يحتاجه المجرم لارتكاب جريمته، أكثر شيء يخافه القاتل ليست الشرطة ولا القاضي ولا العقاب، إنما خوفه من نفسه، هي أعصابه وإراداته وضميره، وجعلت أفكر في هذا الموضوع، جعلت أدرسه وأعيه وأفحصه،

ولا أقول إنني وثقت الوثوق المطلق من هدوء أعصابي وثبات إرادتي، فإن وثوقاً كهذا لا يصدر إلا عن رجل مفكر عاقل يعتد بكل الاحتمالات والممكنات، ولكني بعد أن وزنت إرادتي، وصلابة أعصابي واحتقاري التام للقيمة الأدبية، شعرت أنني أستطيع أن أعتمد كثيراً على نجاح خطتي.

والآن وقد تحققت خطتي ربما تسألون أنفسكم، يا ترى أيحزنني الآن ضميري، وهل أشعر بندم أو أسف؟ وأجيبكم. كلا، ولا ذرة من ندم.

أشعر بألم، نعم، بألم شديد هائل، ما أظن أحداً غيري في العالم عاناه، إن شعر رأسي الأسود يستحيل الآن إلى البياض، ولكن هذا شيء آخر، نعم شيء آخر. شيء مخيف مفزع خارق غريب، لا يمكن أن يصدق مع بساطته الفظيعة الهائلة.

2 ـ

عزمت على أن أقتل ألكسيز، ولكني أردت أن تعلم تاتيانا أنني أنا الذي قتلت زوجها، ولكنني كنت أريد مع ذلك أن أتجنب عقوبة القانون، وإن كان عقابي لن يغني تاتيانا عن نكبتها شيئاً، لأنني كنت كأكثر الناس أكره السجن وأحب الحياة، أحب أن أرى الخمور مشرقة في الكأس، وأن أمد ذراعي وساقي على فراش ممهد وثير، وأحب أن أملأ سحري بنسمات الربيع، وأشهد الشموس الزاهية في مطالعها ومغاربها، وأقرأ الكتب، وأنعم بالمطالعة، أحب نفسي، قوة عضلاتي، وصفاء ذهني، ورجاحة لبي. ولم أفهم يوماً ما يريد الناس بقولهم (متاعب الحياة).

ومع ذلك كان من الهين على أن أنجو بنفسي من العقاب إذ هناك ألف وسيلة يستطيع بها الإنسان أن يقتل في خفية إنساناً آخر، ولاسيما إذا كان طبيباً مثلي، ومن بين الخطط التي فكرت فيها ثم أعرضت عنها، خطة واحدة تدبرتها طويلاً وفحصتها، ذلك أني فكرت في أن أدبر له مرضاً عضالاً قاتلاً، ولكن الصعوبات التي تعتر هذه الخطة مما يتبين لكم أيها السادة، على حين أن ألم الضحية المستطيل المستمر سيكون خشناً فظاً قاسياً، وفوق ذلك فإن تاتيانا ستتنعم بشيء من السعادة حتى في مرض زوجها وأصعب ما في خطتي أنني كنت أريد أن تعلم أية يد أوقعت برجلها، وما كان مثلي لتخيفه العوائق، إذ العوائق لا تخيف إلا الجبناء.

وسنحت لي الفرصة ، وهنا استرعى انتباهكم إلى نقطة هامة، أقول لكم إنها الفرصة وحدها لا إرادتي التي خدمتني، هي وحدها التي كانت

أساساً للجريمة، وهي التي خلقت الحوادث التي جرت بعد ذلك.

لقد قرأت في إحدى الصحف، ولعل نسخة الصحيفة لا تزال في بيتي، إذا لم تكن قد وقعت في أيدي القضاء، إن رجلاً ادعى أنه أصيب بنوبة عصبية جنونية، فقد خلالها المال الذي أؤتمن عليه، وكان في الحقيقة قد اختلسه، على أن الرجل كان جباناً، فاعترف بذنبه، وبلغ به جبنه أن دل القضاة على المخبأ الذي وضع فيه ما سرق، ولكن الفكرة نفسها لم تكن سيئة ولا صعبة الإنجاز (نعم) إن التظاهر بالجنون، وقتل ألكسيز في نوبة جنونية ثم الرجوع إلى الرشد، هذه هي الخطة التي وثبت إلى رأسي. عندما كنت أقرأ قصة ذلك الرجل. وكنت أعرف شيئاً من علم النفس وجعلت أمضي وقتا طويلا في قراءة هذا العلم والمؤلفات الخاصة به. حتى تبينت أن خطتي لا بد أن تنجح.

وأول شيء يجب أن يسترعي أذهان علماء

السيكولوجيا هو تأثير الوراثة. ولشد ما كان ابتهاجي إذ وجدت التأثير الوراثي موافقاً لغرضي، كان أبي مدمناً على تعاطي الخمور. وقضى أحد عمومتي في مستشفى المجانين، وتوفيت أختي الوحيدة. وكانت عرضة للتشنج العصبي.

وبدا لي أن من الهين على أن ألعب دور مجنون، فعمدت إلى قراءة ما يدور حول طبائع المجانين في الكتب، وأضفت من عندي بعض الاختراعات الجنونبية، كما يفعل أي ممثل جذق.

وخطر لي، وأنا أقوم بمبادئ خطتي خاطر غريب. لا أظنه يقع يوماً لمجنون، ذلك أني فكرت في الخطر المفزع المخيف الذي تجره تجاربي المجنونة.

وأنت يا تفهمون ما أريد، إن الجنون ليس إلا ناراً محرقة تلهب من يلعب بها، بل لو كنتم في كهف مظلم مملوء بالبارود، وأشعلتم

النار في جوانبه، لكان أأمن عليكم وأقل خطراً من أن ينساب إلى عقل أحدكم أقل خوف من الجنون.

كنت أعرف ذلك، وكنت أحسه، ولكن أي خطر يستطيع أن يرد رجلا جريئا مثلي؟!

الجزائر تقرأ

- 3 -

ولعلكم الآن تفهمون مبلغ تلك النوبة الجنونية المخيفة التي اعترتني في وليمة آل كارجوانوف.

كانت هذه النوبة أول تجاربي، وقد نجحت أكثر مما كنت أتوقع، أقول لكم إن المدعوين جميعاً رأوا عوارض تلك النوبة قبل أن تبتدئ، وبدا لهم أنها حادثة عادية قد تقع يوماً للأصحاء الأقوياء، فلم يظهر على أحد منهم أدنى أمارات الدهشة أو الاستغراب.

ألم ينبؤكم أنني كنت ساعتذاك شاحب اللون، مخيفاً مرعباً، وإن جبيني كان غارقاً في لجة من العرق البارد، ألم تنتبهوا أن شعلة الجنون كانت تطل من عيني ولما أنبؤوني

بعد ذلك بكل ما رأوا مني في المأدبة اتخذت هيئة محزنة مظلمة متعبة، ولكنني كنت في أعماق ضميري مزهواً بنجاحي فرحاً مغتبطاً.

ولم تكن تاتيانيا ولا زوجها قد حضرا المأدبة، ولا أعرف إذا كنتم لاحظتم هذه النقطة، نعم، لم يكن تغيبهما عن الوليمة فرصة من الفرص، ولكني اخترت أن أقوم بالنوبة في غيابهما، كنت أشفق من أن أتسبب في إرعاب تاتيانا، بل أكثر من ذلك، من إثارة شكوكها، وذلك لأنه إذا كان في العالم إنسان واحد يستطيع أن يكتشف أمري، فذلك الإنسان لا يكون ولا ريب هي، هي وحدها.

اخترت ساعة العشاء لنوبتي، إذ يكون المدعوون جالسين في مقاعدهم. ويكون الخمر قد هاج بأعصابهم. ولعبت الشمول بالرؤوس. وأخذت مقعدي عند طرف المائدة بعيداً عن الشموع الموقدة. لأنني لم أكن أريد أن أثير حريقاً في الدار أو ألهب أنفي وأطرافي.

وطلبت من أحد المدعوين وهو بافل بتروفتش أن يجلس بجانبي. لأني كنت منذ زمن بعيد أميل إلى إغضاب هذا المخلوق المرذول البدين. وهو إذا أكل اشتد ثقل روح وازداد برودة دم. ولقد حسبت يوم رأيت هذا الثقيل يأكل أن الأكل لابد من أن يكون رذيلة الرذائل ومشت خطتي في هينة ورفق، وكان كل شيء في صالحي، حتى لم يستطع أحد منهم أن يلحظ أن الصفحة التي حطمتها بقبضة يدي كانت مغطاة بالمنشفة، لكي أتجنب جرح يدي.

وكانت الرواية المضحكة التي قمت بتمثيلها حمقاء طائشة، ولكن ذلك ما كنت أريده، ذلك لأنني لو عمدت إلى حركة أهدأ وأعقل وأتقن لكانت غامضة مبهمة، بدأت ألوح بذراعي في الهواء وأصيح في وجه بتروفتش أرعن مغيظاً، وأصبح هو مندهشا ومذهولا يحدق إلي ببصره، ويدير عينيه فيَ مبهوتاً، وإذ ذاك عدت

إلى هدوء هامد مظلم حزين.

قالت أيرين بافيلوفونا في ابتسامة صغيرة، ما بك يا أنتوني، ولم هذا الانقباض؟.

حتى إذا شخصت الأبصار جميعاً إلى، تضاحكت ضحكة محزنة مريضة قالوا أجمعين ما بالك، ألست في صحتك؟.

قلت أحس بدوار، إن رأسي يضطرب، ولكن أرجوكم يا سادة أن لا تنزعجوا فإنه عمل قليل تمر.

وعادت ربة الدار إلى طمأنينتها، ولكن بتروفتش جعل يلحظني بعين متهمة غير مصدقة وما كادت تمضي لحظة أخرى، حتى رأيته يرفع كأسه إلى شفتيه فوثبت إليه فحطمت الكأس قريباً من أنفه، وألقيت بقوة وعنف قبضتي على الصفحة التي أمامي فطارت شظاياها في كل مكان، أما بتروفيتش فبدأ يسخط ويلعن ويشتم وهو يدور حولي، وولولت السيدات وارتفع الصريخ،

وضج الصياح، وصرفت بأسناني ثم جررت غطاء المائدة وما فوقها، صدقوني إن قلت لكم إنها كانت تمثيلية طائشة مضحكة.

أجل، لقد كانت دعابة جميلة، وإذا بهم جميعاً قد التفوا حولي وتزاحموا، فأمسكوا بذراعي، ومنهم من جاءني بالماء يمسح به وجهي، ثم أجلسوني في مقعد كبير، وأنا أزأر زئير النمر قد احتبس وأنا أدور بعيني في الجميع بنظرات مفترسة متوحشة، وكان كل شيء مضحكاً، وكان الجمع الملتف حولي أحمق مغفلاً، حتى هممت بأن أنتهز فرصتي فانهال عليهم بالضرب وألطمهم فوق أنوفهم ولكنني تجلدت فأمسكت عن ذلك وسكت.

وبدأت أعود إلى رشدي،، ورحت أرسل أنفاساً عميقة صاعدة متراجعة وأخلق عوارض إغماء متعددة. وأصرف بأسناني، وأعض على شفتي، وأفقت أخيراً وأنا أسأل أسئلة كهذه أين أنا؟ وماذا حدث؟.

ووقع هذا السؤال البارد موقعه المعتاد، فتكلف ثلاثة من أولئك الحمقى الرد عليه، فقالوا إنك عند آل كارجوانوف ثم في صوت رفيق مداعب أتعرف يا دكتور من هي إيرين كارجوانوف؟.

حقاً إنهم لا يصلحون لحضور تمثيليتي المضحكة...

ووقعت النوبة الثانية بعد شهر من الأولى، وكانت هذه أقل حذقاً واتقاناً من تلك، ولم أكن أريد أن أحدث ضجة أخرى كالضجة التي أحدثتها سابقا، ولكنني عندما رأيت الظروف موافقة صالحة وجدت من الحماقة أن لا أنتفع منها، وأنا لا أزال أذكر كل ما حدث، كنت مرة أخرى في حفل عند صديق لي، وكنا نجلس في حجرة الاستقبال، آخذين في حديث طويل، وإذا بي قد شعرت بإحساس عميق حزين، ورأيت بكل وضوح وبيان موقفي، وجدتني غريباً بين القوم غير معروف، رأيتني وحيداً في هذا العالم،

سجيناً آخر الدهر في محبس التظاهر بالجنون، وتولاني بعد ذلك إحساس آخر، هو احتقار كل من حولي وكراهيتهم لي، وهنا استشطت غيظا، وعلا حنقي وتوحشي وشرعت أضرب بقبضتي الفضاء، وأصيح صيحات نكراء وأشتم شتائم شنيعة، وأقول كلمات عور مذمومة، وكم كانت سعادتي كبيرة وأنا أرى وجوه الجميع تصفر من خوف ورعب!.

وانطلقت أصيح فيهم أيها الأوغاد، أيها السفلة الأنذال، أيتها المخلوقات القذرة النتنة، أيتها الأرواح الحقيرة الملطخة، إني ألعنكم، إني أبغضكم وجعلت في توحشي هذا وجدي أتلاكم أول الأمر مع خدم الدار وأتضارب، ثم هرع إلى سائقو مركبات الحضور فانطلقت فيهم ضرباً وصراعاً ولكماً ورفساً. والآن أعترف أمامكم في سذاجة وبساطة. إنني كنت أشعر بالسرور والابتهاج من ضربهم وشتمهم في وجوههم، وإذن هل من يعترف بالحق يكون

مجنوناً، إنني أؤكد لكم، إنني كنت أعي كل شيء، كنت أحس تحت يدي بأجسام حية تتألم من لكماتي وضربي.

وفي تلك الليلة بعينها، إذ ضمتني جدران مخدعي، رجعت أضحك من نفسي وأقول يا لي من ممثل بارع، وأويت بعد ذلك إلى الفراش، وقرأت في تلك الليلة وأنا مضطجع كتاباً، أستطيع أن أقول لكم حتى عن اسم مؤلفه.. إنه غي دو موباسان، إذ كنت من المعجبين به، وبعد أن أتممت الرواية تولاني النعاس فنمت ليلتي نوماً هانئاً عميقاً كالأطفال، وأنا أسألكم الآن، هل يقرأ المجانين كتباً، هل يتذكرون اسم كاتبها؟ هل يجدون في قراءتها لذة ويحسون سروراً، وهل ينامون بعد القراءة نوماً طفولياً عميقاً؟.

إن المجانين لا يذوقون طعم النوم، إنهم يتألمون، إن اضطرابهم كله في أذهانهم، هم يريدون أن يصرخوا ويمزقوا ويعضوا، هم

يحبون أن يزحفوا على أيديهم وأرجلهم، زحفاً رفيقاً، هادئاً ثم يهبوا وقوفاً صارخين ضاحكين ها. . ها. . .

نعم، نعم، ولكنني نمت كالأطفال، وهل ينام المجانين نوم الأطفال؟

الجزائر تقرأ

- 4 -

وبدأ الناس بعد النوبة الثانية يخافون مني وامتنعوا عن دعوتي إلى بيوتهم وإذا لقيت عرضاً في الطريق بعض معارفي، قطبوا وجوههم وابتسموا ابتسامة مريضة سقيمة وهم يقولون يا صديقنا كيف حالك؟ وما كان أسهل على عند ذاك أن أمد إليهم يدي بالأذى، ولا ألام عليه ولا أعاتب، ولكنني تمهلت وأردت أن أنتظر حتى أفوز بتصريح طبي فعلي يكون كإذن لما سيقع من يدي وعزمت على أن أنتظر كذلك الظروف التي تجعل استشارة الأطباء في حالتي تبدو كحادث عرضي غير مقصود وإن كانت حيطتي هذه تهذيباً في خطتي لا حاجة إليه، وكذلك حدث أن تاتيانا نفسها وزوجها هما اللذان أخذاني إلى الطبيب، وكان

هذا في رأيي نقطة بارعة متقنة مؤثرة قالت تاتيانا (أتوسل إليك أن تذهب إلى الطبيب يا عزيزي أنتوني؟) لقد كانت المرة الأولى التي نادتني في حياتي بلفظة (يا عزيزي) وهكذا كان يجب أن أجن لكي أفوز منها بتلك الكلمة!.

فأجبتها في استكانة وخضوع (سمعاً يا عزيزتي تاتيانا سأذهب) وكنا ثلاثتنا في الحجرة التي قدر لها أن تكون مكان الجريمة، فقال ألكسيز في لهجة سيطرة ونفوذ (نعم يا أنتوني يجب أن نذهب دون تردد إلى الطبيب، وألا يعلم الله أي حادث يمكن أن تحدثه؟!) فقلت في صوت ضعيف متخاذل جبان مرتعد محاولاً أن أخلي نفسه من التبعة في عيني صديقي القاسي الشديد ولكن ماذا أستطيع أنا أن أحدث؟ قال ومن يعلم. . . قد تفلق جممة إنسان!

وكنت أقلب بين يدي ثقالة ورق ضخمة من البرونز، فنظرت إلى ألكسيز ثم إلى الثقالة وأنا

أقول جمجمة إنسان؟ أتقول الجمجمة؟ فقال ولماذا، نعم أقول الجمجمة، قد تأخذ أداة كهذه فينتهي كل شيء!.

هذه يا أصدقائي مسألة لذيذة هامة.. لقد كانت هي الجمجمة التي عزمت على فدغها وهي هي الأداة التي أجمعت أمري على استعمالها والآن ترون أن هذه الجمجمة هي قد تخيلت الجريمة بحذافيرها قبل وقوعها، ولكن صاحب الجمجمة فاه بكلمته في ابتسامة غير مكترثة، ومع ذلك تجد هناك قوماً يعتقدون بوجود إحساسات هاجسة متنبشة. . أي حمق وأية سخافة!.

قلت إنه لا يكاد الإنسان يستطيع أن يحدث بهذه ضراً، إنها خفيفة فأجابني ألكسيز مندهشاً متعجباً ماذا تقول؟ خفيفة؟ وأخذ الثقالة من يدي فأمسكها من يدها وجعل يهزها مرات متوالية ثم دفعها إلي ثانية وهو يقول زنها في يدك، قلت إني أعرف مقدار ثقلها ولكنه

قال كلا، خذها في يدك وبعد ذلك احكم، فتناولت الأداة منه في ابتسامة ضعيفة، وهنا تداخلت تاتيانا بيننا، شاحبة اللون مرتجفة الشفتين، وهي تقول كف عن هذا يا ألكسيز، فالتفت إليها مندهشاً ثم سألها ولماذا، ما بالك يا تاتيانا؟ فرددت القول: امتنع عن هذا، أنت تعرف إنني أكره مثل هذا المزاح وهنا ضحكنا جميعاً: ووضعت الثقالة جانبا.

وكانت زيارتي للطبيب ت. . . مثل ما كنت أتوقع، فقد كان الرجل محترساً مدققاً، واتخذ سيمياء الجد والاهتمام، وسألني أسئلة عديدة، عما إذا كان لي أقارب يعنون بأمري، ونصح لي أن لا أفارق بيتي وأن أستكين إلى الراحة والهدوء وبحق مهنتي جعلت أناقشه وأحاجه وإذا كان قبل محاجتي له في ريب من حالتي، فقد تبددت جميعها بمخالفتي لآرائه في تشخيص مرضى وتشريحه، ومنذ تلك اللحظة وأنا في نظر ذلك الطبيب مجنون.

نعم مجنون والجنون الذي بي جنون موحش ميؤوس مطبق ولكني أؤمل أن لا تضعوا كبير أهمية لتلك المزحة الصغيرة التي موهتها على رجل من أهل صنعتكم. . . إن الأستاذ ت. . العالم الباحث ليستحق ولا ريب كل الإحترام.

ومنذ اليوم الذي أصبحت حياة ألكسيز في يدي وأنا أهتم كل اهتمامي بصحته ولم يكن ألكسيز قوياً شديد الأسر. ومع هذا كان مهملاً نفسه غير مكترث بصحته لا يريد أن يلبس قميصاً أو يتدثر بصدار، يخرج في اليوم البارد المقرور دون خفية. وكانت تاتيانا تكلف نفسها صعود سلم منزلي لتحمل إلي أنباء زوجها المتوعك المريض وجاءت مرة لتقول لي إن ألكسيز نام ليلة الأمس في هدأة ورفق - وكان هذا أمراً غير عادي عند ألكسيز فأظهرت لهذا الخبر ابتهاجاً وغبطة وطلبت إلى تاتيانا أن تحمل إلى زوجها كتابا مني وكان هذا الكتاب نادر الوجود وكان هو مشتاقا إلى قراءته. ولعل

إتحافه بهذه الطريقة كان غلطة مني إذ قد يتهمونني بأني كنت أريد بهديتي أن أعميهم عن التماس الحقيقية، ولكن رغبتي في إدخال السرور على قلب ألكسيز كانت شديدة حارة حتى أجمعت نيتي على أن أجازف هذه المجازفة الصغيرة، وسلكت في هذا اللقاء مع تاتيانا مسلكاً رفيقاً محبوباً جميلاً فرأيتني أكتسب بذلك شيئاً من انفعالها وتأثر مشاعرها ووجداناتها وهي وزوجها لم يشهداني في نوبتي الماضيتين، حتى لقد صعبا عليهما أن يفهما أنني حقاً مجنون.

قالت تاتيانا وهي تستأذن في الانصراف هلا جئت لزيارتنا؟ فقلت مبتسماً لا أستطيع، إن الطبيب قد أمرني أن لا أبرح مكاني فقالت أية سخافة وأي هراء هذا! أنت تستطيع أن تأتي إلينا، إذ تكون لدينا كأنك في بيتك، وإن الكسيز لتهفو نفسه شوقاً إلى رؤيت.

.وكذلك وعدتها الذهاب، وما وعدت في حياتي وعداً كهذا وكنت في إنجازه أوثق مني

ذلك اليوم.

الجزائر تقرأ

5

وكانت الثقالة البرونزية في موضعها في اليوم الحادي عشر من شهر ديسمبر الساعة الخامسة من المساء، وأنا أدخل مخدع السكين، وكان ذلك قبل تناول العشاء، وعشاؤهما في الساعة السابعة، وكانا ساعتذاك في بهجة ومرح، وازداد مرحهما برؤيتي. قال ألكسيز وهو يشد يده بيدي (شكرا لك يا صديقي على الكتاب الذي أهديتني إياه، كان ينبغي أن آتي أنا لزيارتك، لولا أن تاتيانا أكدت لي أنك قد وعدت بزيارتنا. وستذهب الليلة إلى المسرح. فهل تصحبنا معك؟.

ومضينا نخوض في حديث عادي طويل، وكنت أتكلم بدقة وإيجاز ووضوح وجعلت عيني طول الوقت تستقر على عقرب الساعة، وقد عزمت على أني إذ تدق السادسة يجب

أن أقتله!.

حتى إذا بقي على ميعاد الجريمة سبع دقائق نهض ألكسيز عن المتكأ متثاقلاً متبلداً وغادر الحجرة وهو يقول (سأعود بعد هنيهة).

وأردت أن أتجنب عيني تاتيانا ونظراتها فخطرت إلى النافذة ففرقت الأستار ووقفت هناك كأنني أنظر وأتأمل، وإذا بي أشعر بتاتيانا دون أن أراها تخطر في الحجرة متوجهة نحوي، وجاءت فوقفت بجانبي، وكنت أسمع تنفسها الصاعد المتراجع، وعرفت أنها كانت تنظر إلي لا إلى النافذة، فاعتصمت بالسكوت.

قالت تاتيانا (ما أشد وميض الجلد!) فلم أحر جواباً، وعادت تناديني وهي مترددة (أنتوني!) ولكنني لم أجب أيضا، فكررت النداء في صوت متهدج مرتجف فنظرت إليها.

وهنا أخذت تاتيانا ترتعش وتتمايل حتى أوشكت أن تقع، كأنما صعقتها تلك القوة المتوحشة المفترسة المرعبة التي كانت تطل

من عيني، ثم وثبت إلى جانب زوجها، وكان في تلك الآونة قد رجع، وتمتمت ألكسيز!. . ألسكيز. . . إنه. . . .

فقال (ماذا تريدين؟)

قلت دون ابتسام بل في صوت خشن مخيف (إنها تعتقد أنني أريد أقتلك بهذه الأداة) هذا ورحت أرفع في سكون وخفة وصمت الثقالة وتقدمت رويداً نحو ألكسيز، فشخص في بصره مصفراً مذهولاً مبهوتاً، وهو يكرر هذه الكلمات هي تعتقد. . . قلت (نعم هي تعتقد!) ورفعت ذراعي في رفق وأنا أشير بالأداة وألوح، وبدأ ألكسيز في مثل رفقي يرفع هو الآخر ذراعه، وعيناه لم تغادرا وجهي، فصحت به في خشونة وغلظة أن (قف!) وعند ذاك تراخت ذراعاه، وبقيت عيناه مستقرة علي، وبدت على شفتيه ابتسامة ضعيفة ذابلة متهمة، وصرخت تاتانيا صراخاً مرعباً مزعجاً، ولكن كان الوقت قد حان!

نعم بحد تلك الثقالة هويت على ألكسيز أضربه فوق جبهته، وقد أخبرني القضاة يا أصدقائي إنني ضربته عدة ضربات، إذ رأوا جمجمة القتيل مفتتة مبددة، ولكن هذا مخالف للحقيقة، أنا ضربت ألكسيز ثلاث ضربات لا غير، واحدة وكان واقفاً واثنان وهو مطروح على أرض الحجرة.

نعم، الحق أقول أن الضربات كانت شديدة قاسية، ولكنها ثلاث ضربات ولا تزيد، إنني أذكر ذلك جيدا، نعم، كانت ثلاث ضربات فقط!

الجزائر تقرأ

6 ـ

أرجوكم أن لا تتبعوا أنفسكم في تحليل هذه الكلمات التي كتبتها في ختام الفصل الخامس، ولا تلقوا لها أهمية كبيرة، علي شطب بعض الكلمات وحذفها، لا تعدوها دلائل على عقل مضطرب مجنون، فإن موقفي الغريب الآن يدعوني إلى أن أكون دقيقاً موفياً كل صغيرة وكبيرة، أريد أن أكون أمامكم صريحاً حراً ساذجاً، فافهموا ذلك عني واحفظوه.

وتعلمون أنتم أن لظلام الليل تأثيراً شديداً على الأعصاب المتعبة المنهوكة، ولذلك ترون أن الأفكار المزعجة والخواطر السوداء المخيفة لا تجيئنا إلا مع الظلمة ولا تغشى رؤسنا إلا مع الليل، ولذلك كانت أعصابي في الساعات المظلمة التي أعقبت الجريمة غرضاً لاضطراب مدهش غريب، نعم ما أشد حاجة من كان في

مكاني إلى قوة كبرى على ضبط مشاعره، إن قتل رجل ليس مزاحاً!.

فلما كان وقت تناول الشاي، بعد أن نظمت بزتي، وقلمت أظفاري، وغيرت أثوابي، دعوت طاهيتي ماريا فازيليفنا إلى الجلوس بجانبي، وكانت هذه المرأة الحمقاء هي التي ضربتني الضربة الأولى.

قلت لها تعالي فقبليني. .

فضحكت ضحكة بلهاء وظلت جامدة في مكانها، قلت (تعالي) فارتجفت، ثم أحمر وجهها، وبدت في عينيها أمارات الرعب، وأقبلت نحوي فاتكأت على الخوان في مظهر الذليل الخاضع المتوسل فقالت (يا صديقي أنتوني أتضرع إليك أن تذهب إلى الطبيب) فقلت وأنا مندهش غاضب (ماذا، أأذهب إليه ثانية؟) فصاحت المرأة (ويلي، لا تصح هذا الصياح، إنك تخيفني، إنني مرتاعة منك يا صديقي).

كل ذلك وهي لم تكن تعلم شيئاً عن نوباتي حتى تلك الساعة ولا عن جريمة القتل، بل كنت أبدو أمام تلك المرأة هادئاً وديعاً حدباً حنوناً.

عند ذلك تولاني خاطر غريب. قلت (إذن إن بي شيئاً ليس بالناس، شيئاً يخيف القوم ويرعب) ولكني طردت هذا الخاطر في الحال، ومع ذلك غادر في إحساساً غريباً، وشعرت ببرودة في ظهري ومفاصلي، وجعلت أعلل نفسي بأن ماريا علمت ولا ريب بمرضي من أهل المدينة أو من ألسنة الخدم، أو لعلها لاحظت ملابسي الممزقة التي خلعتها عني، فكان ذلك داعياً لهذا الرعب الذي أبدت، فقلت (اذهبي!).

فلما تولت مددت جسمي على المقعد الطويل أمام مكتبي، ولكنني لم أشعر بميل إلى القراءة، بل أحسست بتراخ ووهن شديدين، كما يكون من الممثل بعد الإبداع في دوره. وثقل جفناي، وتراخت أهدابي وشعرت بطائف النوم وإذا بخاطر جديد قد نفذ إلى رأسي،

جعل ينساب بطيئاً بليداً متكاسلاً، وكان له كل المزايا التي امتازت بها خواطري - الوضوح والإيجاز والبساطة، نعم نفذ إلى رأسي واستقر، وها أنا ألقيه إليكم حرفاً بحرف، في صورة الغائب، وهكذا خطر لي، وإن كنت لا أعرف السبب، وهذا هو (إن من المحتمل جداً أن الدكتور كرجنترف حقاً مجنون. هو ظن أنه قد تظاهر بالجنون ولكنه في الحقيقة مجنون. إنه في هذه اللحظة مجنون وأعاد هذا الخاطر نفسه في ذهني ثلاث مرات أو أربع، وظللت أضحك، لأنني لم أفهم (إنه ظن أنه قد تظاهر بالجنون. ولكنه في الحقيقة مجنون، إنه في هذه اللحظة مجنون).

وتوهمت أول الأمر أن هذه الكلمات قالتها ماريا، إذ بدا لي أن الكلمات قد وجدت صوتاً. وإن هذا الصوت يشبه صوتها، ثم ظننت أنه صوت ألكسيز، نعم صوت القتيل ألكسيز، وأخيراً تبينت أنني أنا الذي رددت هذا الخاطر، وكان هذا شنيعاً مرعباً.

هنا أمسكت بشعر رأسي ووثبت واقفاً في بهرة الحجرة أقول (هو ذلك. انتهى كل شيء! لقد وقع الذي خفت أن يكون، إنني اقتربت من الحدود ودانيت، والآن لا يحفظ لي المستقبل إلا شيئاً واحداً. . . هو الجنون!).

فلما جاءوا للقبض علي كنت كما يظهر في حالة مخيفة رهيبة، كان وجهي المتوحش الشاحب تقشعر لرؤيته الأبدان، كانت ملابسي ممزقة قطعاً وإرباً، ولكن أنشدكم الله، أن رجلاً يقضي مثلي المساء المخيف الذي قضيت دون أن يجن عقله، ألا يدل ذلك على أن لي عقلاً قوياً جباراً صلباً؟.

إنني لم أحدث شيئاً أكثر من تمزيق ثيابي وتحطيم الزجاج، وعلى ذكر الزجاج اسمحوا لي أن أدلي إليكم بنصيحة، إذا قدر لأحدكم أن يعاني ما عانيت ذلك المساء فليثق من تغطية مرايا الحجرة التي هو بها وليغطها كما تغطى إذا مات في البيت ميت نعم احجبوها

وأجيدوا الحجاب!.

ولا أذكر بعد ذلك شيئاً حتى وصول الشرطة، وسألت كم الوقت فإنما نحن في التاسعة، فكدت لا أصدق بأنه لم يمض على قتل ألكسيز إلا ثلاث ساعات فقط وإن كنت أتذكر فلا أذكر إلا شيئاً واحداً، هو خاطري، هو الصوت (إن الدكتور كرجنتزف ظن أنه قد تظاهر بالجنون وما كان في الحقيقة إلا مجنوناً).

وعند ذلك جسست نبضي فإذا هو مائة وثمانون، نعم، إن مجرد ذكرى ذلك الصوت كان كافياً لأن يثير دقات نبضي إلى هذا الحد.

الجزائر تقرأ

7 ـ

والآن يا أساطين العلم وأرباب البحث أنا أطلب منكم جوابا، هل أنا مجنون أم لا؟ إنكم ولا شك ستنقسمون في أحكامكم، سيقول البعض رأياً، ويقول البعض الآخر نقيضه، ولكني أعدكم يا سادتي أن أصدقكم جميعاً، فأعطوني فقط آراءكم وها أنا أقص عليكم كذلك شيئا تافها آخر، ولكنها حادثة هامة قد تعين أذهانكم المنيرة وعقولكم الخصبة اليانعة.

في ذات مساء هادئ ساذج، بين هذه الجدران البيضاء لاحظت أن الممرضة تنظر إلي نظرات خائفة مذعورة مضطربة كأنما انزعجت من شيء مخيف، وتركت الحجرة فظللت وحيداً جالساً فوق الفراش وهنا جعلت أفكر وبدا لي أنني أريد أن أفعل شيئا غريبا - نعم، أنا الدكتور كرجنتزف أردت أن أنبح، نعم، لا أصرخ بل أنبح، كما يفعل الآخرون، أردت أن أمزق ثيابي وأجرح

وجهي وأخدش، أردت أن آخذ بتلابيب القميص وأشقه شقتين حتى الحاشية، وأنا، أنا الدكتور كرجنتزف، أردت أن أنزل على راحتي وركبتي وأزحف! وكان السكون حولي سائداً، وقطع البرد تلمع فوق زجاج النوافذ، وعن كثب مني كانت ما تصلى لله في صمت، فلبثت مدة أعرض على ذهني أي عمل من هذه الأعمال، أن نبحث أثرت ضوضاء وضحكاً وسخرية، وإذا مزقت قميصي عرفت في اليوم التالي، وبكل تعقل وتدبير أردت أن أحقق الرغبة الثالثة، وهي أن أزحف، نعم لن يسمعني أحد وإذا جاء إنسان ورآني، أقول إنني كنت أبحث عن أزرار سقطت مني.

وهنا فكرت (ولكن لماذا أريد أن أزحف، هل أنا حقاً مجنون؟)

وتولاني الرعب، ثم تولتني رغبة شديدة في أن أقوم بالثلاثة معاً، أنبح وأزحف وأجرح نفسي، فأخذني الغضب.

وسألت نفسي (أتريد أن تزحف؟) فلم أسمع جواباً، فأعدت السؤال (أتريد أن تزحف؟) فلم أسمع جوابا أيضا.

قلت (إذن فلنزحف!) وشمرت عن ساعدي ونزلت على أربع وانطلقت أزحف وما بلغت وسط الحجرة حتى تبينت حماقتي فجلست على الأرض في فكاني ورحت أضحك، أضحك، نعم أضحك.

ولأنه لم يكن لدي أدنى شك أن المرء يستطيع بالبحث أن يهتدي إلى شيء من الحقيقة والمعرفة، قد أخذت على عاتقي أن أهتدي إلى مصدر هذه الرغبات المجنونة التي خطرت ببالي فجأة، أجل هي ولا ريب وليدة خاطري، وإن فكرة التظاهر بالجنون للتخطيط لمقتل ألكسيزهي التي استدعت مني هذه الرغبات، فلما حققتها لم أعد مجنوناً ولكن يا سادة زحفت، نعم زحفت، أي رجل أنا، هل أنا مجنون يعتذر عن نفسه أم عاقل في طريقه